الزائدون عن الحاجة

قصة بقلم محمود رياب

زملائي في المكتب يقولون عني ، اني انسان معقد . ولكني لست معقدا بحال . انا مكتئب فحسب . ولاني ابدو مكتئبا دائما ، فقد قالوا عني ما قالوه . غير اني لا اعرف على وجه التحديد ... لماذا انا مكتئب ، او ما يضايقني اكثر من غيره . كثيرا ما حاولت ان اعرف . ولكني كنت افشل دائما . ويلوح لي ان كل ما يقع عليه بصري او يصل الى سمعي يضايقني بنفس الدرجة ..

ما من مرة وجدتني في قلب الضجيج ، في ميدان العتبة او ميدان التحرير ، انتظر الاوتوبيس ، الا وانتابني الشعور بالضياع ، وباني مريض . الزحام ، والارض المبتلة دواما ، وتلال المكرونة الحمراء المستعجنة .. وهي تنتقل الى الصحون الصدئة ، واقفاص الصحف والمجلات التي تحتل جوانب الموقف ، والرجال الاشداء المتجهمو الخلقة يبيعون ابر الخياطة .. وسورة يس ،كل هذا يرهق نفسي ..ويجعلني احس بالتعاسة والاكتئاب .

انا انسان مكتئب اذن .. ولكني مثقف ..

درست القانون ابتداء بما خط على اوراق البردى .. وكتل الطين المحروق .. حتى قانون ايجارات الاماكن . قرأت ملخصا لا بأس به بالمرة .. لنظرية النسبية .. وتصفحت كتاب راس المال . احتفظ في بيتي بمقامات الحريري ،وطبعة قديمة من ديوان ((اللزوميات)) لابي العلاء المعري . أحفظ سبعة وتسعين بيتا من الشعر القديم. واتذوق الشعر الحديث .. وان كنت اجد ان من المستحيل حفظه. اعرف الكثير عن حرب فيتنام .. وكل شيء عن تاريخ الصهيونية . ولدي فكرة عن فلسفة كل من هيجل وسارتر . وهي فكرة .. لا اقول انها كاملة ..واكنها كافية بالنسبة لرجل لايستلزم حصوله على راتبه الشهري اي شيء من الثقافة . قرأت تفاصيل حياة فان جوخ .. الفنان الذي قطع اذنه .. وبيتهوفن ..اوسيقي العبقري الاصم . وان لم يقع بصري قط على عمل من اعمال الاول .. ولم اسمع شيئا من مؤلفات الثاني ..

ولاني مثقف ، فانا اقرا كل ما يكتب في الصحيفة اليومية التي اشتريها .. عن المسرح والسينما . اتردد على سينما الحي مرتين كل شهر . غير اني لم ادخل المسرح في حياتي سوى مرتين،مرة حين حصلت على فرق علاوتي في العام الماضي.. وقد دخلت المسرح احتفالا بهذه المناسبة . والمرة الثانية كانت بمناسبة الاحتفال بيوم المسرح العالمي منذ سنوات ثلاث . وكان الدخول مجانا . ولم يكن في اي من العرضين مشجع لان اجعل من التردد على المسرح عادة . ورغم ذلك .. ففي بيتي ستة نصوص مسرحية عالمية .. نصفها لشكسبير .

ولاني مثقف ـ بالقياس الى زملائي بمكتب الشكاوى على الاقل ـ فزملائي يحقدون علي وبحوكون المؤامرات للايقاع بيني وبين رئيسي. بل ان رئيسي نفسه لا يحبني لسبب لا افهمه .. ويقول عني ، اني.. « متفلسف » . وهذا ما نقله الي احد الزملاء . وقد دابت ، منذ ابلغت بذلك على ان اراقب نفسي وانا في حضوره .. حتى لا يفلت مني ما يمكن اعتباره تفلسفا . وهذا ، في الواقع ، يسبب لي ارتباكا كبيرا .

وانا لا اميل الى تبادل الاحاديث مع زملائي في العادة . فانا من ناحية اخشى كيدهم .. ولا استبعد ان يؤولوا كلماتي بصورة تسبب لي الاذى . ومن ناحية اخرى ، فان الموضوعات التي تستثيرهم ، وتستهلك معظم وقتهم ،هي في الغالب موضوعات تافهة .. تضايقني، وتثير اعصابي . فانا لا احب كرةالقدم . وامقت لعبة الكلمات المتقاطعة. وكلاهما يحتل رأس قائمة موضوعاتهم الاثيرة . وزملائي من ناحية اخيرة ، يعلقون على كلامي بانه غامض .. ومعقد .. وغير مفهوم . ولكي اكون منصفا ، فاني اقرر بارتياح شديد .. ان هذا الرأي ليس رأي زملائي وحدهم فكثير من الناس الذين التقي بهم ،بحكم ظروف العمل ، او بحكم قرابتي لهم .. حين اكون في زيارة لامي واخوتي « بالبلد » .. يرون نفس الرأي . ولكي اكون منصفا للجميع .. فاني اعترف بأن كلامي لا يخلو احيانا من اضطراب .وهذا الاضطراب هو ما يفسرونه بالغموض . وهو ينتج عادة من اني حين اتكلم ..اثبت عيني بعين المستمع الي ، فيخيل الي في لحظة انه لا يفهمني ...او يباغتني الاحساس بان فيما قلت ـ خطأ ما قد يشكك مستمعي في ثقافتي . او ان فيه ما قد يؤخذ ضدي . فانا ، حينئذ ،اضطرب ، ثم اتوقف عن الكلام فجأة .. وليس في نيتي ان اضيف حرفا واحدا.

وانا انسان طيب .. رغم كل شيء . او هذا على الاقل ما يراه صاحب البيت الذي اسكنه . فانا لا احمل ضغينة لاحد ، ولا احب ان يكون لي اعداء . بل يرعبني ويقض مضجعي ان احس بان لي عدوا واحدا .. مهما ضؤل شأنه . لذلك فانا حريص على العمل بوصية امي ، رغم انني مثقف .. وامي فلاحة ، بان « اشتري نفسي بالبعد عن الناس .. والا اشنق نفسي بلساني .. »

ان لامي كلمات تخصني بها .. لا تتغير . كلما التقيت بها اعادتها علي ، حتى لا انساها .

ـ ابعد عن الشر وغن له . الدنيا لم يعد فيها امان . ابن الحرام ما خلى لابن الحلال حاجة . الاقتصاد عبادة .. وانت وظيفتك كبيرة .. (فامي تعتقد ، وكل اهل القرية يعتقدون ، ان وظيفتي كبيرة) امسك فيها بيديك واسنانك .. لا تنس انك تعب عمرنا كله واملنا الباقي.

لذلك، فان حياتي ،في القاهرة تنحصر بشكل صارم بين مكتبي وبيتي . واعتقد ، بل اني لاجزم ، بان هذا اللون من الحياة يلائمني جدا ، ولا ارى فيه ما يدعو للشكوى ، بل انه على النقيض،اعفاني من كثير من المشاكل والمآزق التي كان من الممكن ان انزلق فيها .. لو لم اشتر نفسي بالبعد عن الناس ..ولم اغلق فمي .

واسمحوا لي ان اورد هنا تحفظا صغيرا ، لارفع ما قد ينشا لديكم ، بحسن نية ، من لبس . فانني وان كنت لم اتزوج حتى الان، رغم تجاوزي الثلاثين ، فما كان ذلك بسبب التزامي بنصيحة امي بالابتعاد عن الناس . وانما لانني لم التق بعد بالانسانة التي تصلح زوجة لي .. هذا كل ما في الامر .

حدث مرة ان التقيت بواحدة . فتاة مهذبة ، جميلة ، وغريبة عن القاهرة . وقد خيل الي ، عندما التقيت بها ، انها تصلح زوجة لي. وكادت تقوم بيننا علاقة حلوة .. علاقة من هذا النوع من العلاقات التي تؤدي حتما ، لفرط جمالها وروعتها ، الى الزواج ـ ولكنا سرعان ما افترقنا . ولم يكن لنصيحة امي دخل في ذلك ، اؤكد لكم . كان شعرها اسود ناعما جميلا . ولها ابتسامة ريفية مذهلة . وكان

اسمها مريم . وعلى كل فلم يعد لهذه التفاصيل اي اهمية .

انني اعيش بشقة صغيرة .. بالطابق الثاني من بيت متوسط العمر . ليس بشقتي من وسائل الترفيه سوى شرفة صغيرة ،تتسع لكرسي خيزران ، ولجالس واحد .. وهذه الشرفة ، مع ضيقهـا الشديد ، تفي بالحاجة تمامـا . ولم يحدث ، في يوم من الايام ، ان كنت بحاجة الى ان تكون اوسع مما هيعليه.يوم ان استاجرت الشقة ، وقفت بهذه الشرفة الفت حولي مستطلعا ، ثم قلت احدث نفسي في غبطة .

« انني انسان محظوظ حقا »

مقعدي الخيزران ، الذي خصصته لها ، لم يتحرك منهـا ابدا خلال سنوات ثلاث .لم تكن هناك ضرورة لذلك . في ساعة العصرمن كل يوم اظهر في الشرفة . اجلس على المقعد اشرب الشاي . واعتمد بذقني على جدار الشرفة .. اتامل تيار الحياة الجاري في الشارع واظل على هذا الوضع حتى موعد نومي . لا ادري كيف يرىاهل الشارع شرفتي بدوني ؟. لا بد ان شعورا يتملكهم ، عندئذ ،بان حجرا فيحجم راسي ينقصها ..

في مواجهة البيت ، يوجد دكان صغير للبقالة . وهو الدكان الوحيد في الشارع . حين اكوز بشرفتي ، فان هذا الدكان يستغرق جل اهتمامي . انه روح الشارع ، لولاه لفقد قدرا كبيرا منحيويته، ولما كان بالاستطاعة احتمال قتامته ووحشته .

انني اكاد اعرف زبائن الدكان جميعهم ، من كبار وصغار،اعرف حركاتهم وضحكاتهم . واحس بان صداقة من نوع ما تربطني بهم. وبامكاني ان اتعرف على الوجوه الغريبة والجديدة ببساطة من بينهم.

للحاج ، صاحب الدكان ، دكة خشبية صغيرة سودتها الزبوت ... ترى دائما على يمين الباب ولا تختفي الا اذا اغلق الدكان . خلال ثلاث سنوات اراها في نفس المكان . علاقتها بالدكان تشبه علاقة راسي بشرفتي الى حد كبير .

حدث يوما ان ظهر غريب على هذه الدكة . ولانه غريب فقد استلفت نظري . لم يسبق لي ان رايته في الشارع .. والا لتذكرت خلقته . طويل كمارد . يلبس معطفا من نوع معاطف خفرالقرى . اسمر .. وله شارب كث ..وعلىراسه عمامة محبوكة لفتها ..وبيده صحيفة يومية مفتوحة يحملق فيها . قلت لنفسي عندما وقع بصري عليه ،

ـ هاهوذا وجه جديد يسقط على الشارع ..

وحاولت ان ابتسم . اكتشفت وجود هذا الرجل على الدكة فجاة. لا اعرف متى .. ولا كيف ظهر . في اللحظة التي خرجت فيها الى الشرفة لم يكن هناك . هذا مؤكد . فقد كانت الدكة خالية . ومع ذلك لم انتبه اليه الا وهو مستقر عليها . لم ادهش لاني لم انتبه اليه حتى هذه اللحظة .. فقد كنت اعرف السبب . كنت مستغرقا في التفكير ، حتى اني كنت احملق في الاشياء ولا اراها . ولربما حملقت فيه وهو يخطو الى الشارع دون ان اراه كان ثمة حادث صغير قد وقع في الصباح ، فاقلقني ، واستولى على تفكيري طوال النهار . وشغلني حتى عن ان اعد الشاي لنفسي في العصر .

كنت اتناقش مع رئيسي بشان مذكرة حررتها في احدى الشكايات. كان قد ثبت من التحقيق في الشكوى انها كيدية ، اريد بها الايقاع بالموظف المشكو في حقه .. والاضرار به . ومع ذلك فقد كان لي رأي خاص فيها . والا فما الفرق بين محقق مثقف .. واخر غير مثقف. « ان الانسان لا يلتجيء الى الطرق الملتوية للاضرار بالناس الا بسبب ظلم حاق به .. واستحال عليه رفعه بالطرق القويمة .ومن الضروري، قبل حفظ الشكوى ، محاولة التدخل لرفعهذا الظلم » .. وبناءعلى ذلك رايت الاستمرار في التحقيق . غير ان رئيسي راى في ذلك تفلسفا .. والتواء في التفكير . وسخر منه بابتسامة جارحة.حاولت هبثا اقناعه برايي . وفكرت في ان ادعم هذا الراي ببيت من الشعر كنت احفظه. بيد اني لم اوفق الى هذا البيت . تبينت اني نسيته. ومنذ ذلك اليوم ، انكمشت ذخيرتي من ابيات الشعر التي احفظها الى سبعة وتسعين بيتا . وبينما كنت اتخبط في حيرتي ، تشاغل عني رئيسي بمظروف اصفر حكومي كان امامه .. ففضه .ثم اذ به يضع حدا لما كنت ابذله من محاولات التذكر ..بان قال :ـ

ـ انهم يطلبون كشفا ... بالموظفين الزائدين على الحاجة ..

نطق عبارته في هدوء ، ودون ان يحول عينيه عن المنشور . الا انها نفذت الى قلبي كخنجر . جف ريقي في التو .. واضطربت انفاسي . كان باستطاعتي ان المس ما تخفيه لهجته ـ رغم هدوئها ـ من وعيد . خيل اليّ ان هذا المنشور اخترع خصيصا للتخلص مني. بل لقد اوحت اليّ الصدمة .. انهم لو احتاجوا لان يستصدروا قانونا لهذا الغرض لفعلوا . وارتسم فيذهني وجه امي الذابل مدفونا في الدخان ، وهي تنفخ نارا لكانون ... تعد لنا العشاء . اردت ان ادفع الشبهة عن نفسي ، فقلت :

ـ فلنوافهم باسماء كل من فيالمكتب اذن ..

وضحكت ضحكة صغيرة جدا . نظر رئيسي اليّ في حدة .امعن النظر في وجهي . قال في نفس الهدوء :

ـ بل ساعد تقريرا دقيقا عن كل موظف بالمكتب.

احسست بالندم لتفوهي بتلك العبارة التي لا ذوق ولا ظرففيها. واستولى عليّ شعور بالحزن. فكرت وانا اتحرك خارجا من مكتبه،ان اعود اليه فاعتذر له عن مذكرتي السخيفة التي كتبتها في تلك الشكوى الكيدية ، غير انه كان قد تشاغل عني بالتليفون .. .ـ فانصرفت وانا اقول لنفسي في اغتمام ،

ـ قد اكون مثقفا .. ولكني لا احسن اختيار الكلام ..

* * *

وقع هذا الحادث بالمكتب في الصباح .. واكتشفت الرجل الغريب على دكة الحاج قبيل الغروب . كنت ما ازال افكر في الموقف . اتمثله بكل تفاصيله ، ثم استعيده ، واضيف اليه ما كنت قد اغفلت من حواشيه . الابتسامة الصفراء التيتلاعبت على جانب فم رئيسي وهو يتكلم عن « التقرير الدقيق »الذي سيعده عن كل موظف . ثم طريقته في نطق هذه العبارة . كان يضغط الكلمات بصورة تكاد تعني ،« لن تفلت هذه المرة .. ايها المتلفسف »..

وراسي حين يضطرب يصعب السيطرة عليه . وقد اضطربراسي بسبب ما بذل من جهد . فكان ما ينفك ـ خلال ذلك كله ـ يعمد الى اختلاق مزيد من المتاعب . يقوم بمحاولات عقيمة لاستعادة بيت الشعر الذيزاغ مني في الصباح . ويفجاني ، بين لحظة واخرى ،بوجه امي الذابل .. الدامع العينين .. وهو مدسوس في دخان الكانون .

لذلك فقد كان من الطبيعي الا الحظالغريب .. وهو يخطو الى الشارع.وكان طبيعيا ايضا..الا اوليه اهتماما كبيرا بعدان اكتشفته. فما لبثت ان شغلت عنه بافكاري .كنت ، بين حين واخر ، اتنبه اليه، واستوعبه بنظرة ، ثم انصرف بذهني عنه . لم اره في اية مرة، من هذه المرات ، يقلب صفحة الجريدة ..حتى لقد تساءلت :

« ما الذي يفعله هذا الرجل وراء الجريدة بالضبط ..؟.. اهو يعرف القراءة حقا .. ؟» .

ظل الرجل ملتصقا بالدكة حتى اوشكت الساعة على الحادية عشرة من الليل . وكان الارهاق قد وصل بي مداه . قررت انانام ... فنهضت . استلقيت على ظهري في سريري وحملقت في الظلام . قلت لنفسي :

« لا بد ان اصرف ذهنيعن المكتب .. ورئيسي .. والتقرير.. حتى يمكنني النوم » .

حولت ذهني عامدا الى الرجل المارد ... ضيف دكة الحاج . اردت ان اخمن علاقته بالحاج .. فلم افكر الا في علاقته بالجرنال . تذكرت عددا من افلام الاجرام الاميركية .. التي تختفي فيها وجوه

المخبرين المحترفين عادة وراء اوراق الصحف . وجدت في هذه المقارنة ما يدعو للابتسام . غير اني لم ابتسم .فقد خطر لي فجأة ، اني ضبطت عيني الرجل الغريب ،في احدى مرات اهتمامي به ، مثبتتين عليّ من وراء الجرنال . اعتدلت في فراشي على الفور .. وسألت نفسي في دهشة :

« أكان ينظر اليّ حقا ...؟ »

ثم تمتمت بصوت مسموع .. وانا اتمدد مرة اخرى ..

« وما اهمية ذلك على اية حال ..كنت اتفرج عليه .. فكان من حقه ان يتفرج عليّ ..»

ولكني ما لبثت ان قفزت من السرير بغية تفكير ..وفتحت باب الشرفة .. فوجدته مغلقا .. وتم تكن الدكة هناك .. وكان الرجل الغريب قد اختفى . حدثت نفسي وانا أعود الى سريري ، وقد ملأت الكآبة قلبي ..

« ستحزن امي لو اعتبروني زائدا عن الحاجة ... بل ربما يقتلها الخبر .»

* * *

حين عدت من عملي في اليوم التالي.. لقيت الرجل الغريب على الدكة .. كما تركته بالامس ..وقد اخفى وجهه وراء الجرنال . لا استطيع ان اقطع بما اذا كان قد غير الجرنال ، او كان يمسك بجرنال الامس نفسه . كان من الطبيعي ان يستحوذ مني على اهتمام اكبر في عصر هذا اليوم . رصدت كل حركاته وسكناته . ولم اتح له ان يضبطني متلبسا بمراقبته . كنت اراقبه بجانب عيني .لاحظت انه كثير السعال . وانه حين يسعل .. يهيىء لنفسه ، في الواقع، فرصة لاختلاس النظر الى شرفتي . وان معظم سعاله مفتعل .

عطلني اهتمامي به عن انجاز مهمة كنت انوي القيام بها . ان افكر في صيغة مناسبة لرسالة اوجهها الى رئيسي .. بعد ان فشلت في مواجهته . كنت انوي ان اعتذر له عن سوء تقديري .. فيما يتعلق بتلك الشكوى الكيدية الملعونة . واؤكد له حسن نيتي ، وتفهمي التام لنظرته الواضحة والمباشرة للامور .

.. « ان الرؤساء دائما على حق .. هذا ما كان يجب عليّ ان افهمه .. واخشى ان يكون فهمي له ..قد جاء بعد الاوان ..»

ترك الحاج المحل وجلس الى جوار الرجل الغريب دقيقتين.كان واضحا انه ليس ثمة علاقة حقيقية بينهما . لم يتبادلا الا كلمات قليلة .. رفع الاثنان خلالها وجهيهما الى شرفتي ..خفق قلبي بعنف . فكرت في ان ارتدي ثيابي على الفور ، فاتوجه الى الدكان، واسال الحاج تفسيرا للموضوع . الا اني رفضت الفكرة . كان هذا التصرف خليقا بان يثير اتشكوك حولي . وقد يحسبني هذا المارد خائفا ..» انني بريء كل البراءة.. مخلص لعملي .. وامر هذا الرجل .. مهما يكن سبب وجوده .. لا يعنيني على الاطلاق ».

* * *

فشلت خلال اسبوع بأكمله، في ان اواجه رئيسي بما كنت اريد ان اقدمه من ايضاح . كما عجزت عن الوصول الى صيغة مناسبة لرسالة اسطرها له . كنت اخشى ان تؤخذ ايضاحاتي وتأكيداتي دليلا ضدي . آثرت الصمت .. والانكباب على عملي . .وتحسين خطي .. والابتسام في وجوه زملائي .. وقول ..« من فضلك .. وشكرا » للساعي كلما طلبت قهوتي

أذهلني ان زملائي في المكتب لم يبدوا اكتراثا بالمسألة ..وكأنها لا تعنيهم . كانوا يناقشونها ، لا في انشغال الزائدين عن الحاجة،بل في هدوء الواثقين من ان الكون بحاجة اليهم ..كمحرك اساسي ودعامة. لم يغيروا خطتهم في العمل ، ولا احاديثهم المعتادة ..حتى خيل اليّ، بصورة مبهمة، ان ثمة تواطوءا بينهم ، وبين رئيسي ، ورئيس رئيسي .. على التخلص مني .

ولم ينقطع الرجل الغريب خلال هذا الاسبوع عن الشارع . لم أكن اراه في الصباح . وعند عودتي من العمل ، كان اول ما افكر فيه، وانا اخطو خطواتي الاولى في الشارع ، هو ان القي بصري على دكة الحاج . فاجده هناك .. والجرنال في يده .خطر لي يوما ان اقترب من الدكان .. اتعمد شراء اي شيء .. كعدد من اقراص النعناع .. فاتحقق من تاريخ صدور هذا الجرنال . ولكني عدلت عن ذلك في اللحظة المناسبة . خشيت ان تلتقي عيناي بعيني الرجل .. فيفهمني . كنت حريصا على الا يصدر عني ما يوحي اليه .. اقل ايحاء .. باني مهتم به .. او باني اشعر .. اقل شعور .. بوجوده .

كان من اليسير عليّ ان ادرك خلال هذا الاسبوع انه لا علاقة لهذا الرجل بالحاج او بالشارع .. او حتى بالجرنال . وان وجوده في الحقيقة انما يرتبط بي انا نفسي .. لحكمة لا اعلمها . شغلني الرجل عن كل من عداه . استولى عليّ. لم اعد ارى غيره .. ولا افكر الا فيه . بل لقد رأيته في منامي مرة . كنا نقف ،انا وهو ،وجها لوجه في قلب ميدان العتبة .. احملق فيه .. ويحملق فيّ .. وكلانا يبتسم للاخر في سخرية .. ولا نتكلم . حين استيقظت في الصباح .. كان هذا الحلم لا يزال عالقا برأسي . قلت لنفسي وانا ارتدي ثيابي في عجلة .

«« كرجل مثقف.. باستطاعتي ان اشخص حالتي.يجب الا اترك نفسي نهبا للقلق بهذه الصورة .. والا فالمرض او الجنون ... هو مصيري » .

وتذكرت احداث قصة قديمة قرأتها . ومن ثم ،فقد اتخذت قرارا حاسما بأن أكون اكثر شجاعة في مواجهتي للموقف ، وان اترك كل شيء لتدبير الله ...

* * *

لم يكن الزحام في الاتوبيس ثقيلا . كان بامكاني ان انفذ ببصري من خلال الاكتاف . بعد ان دسست نفسي بين الركاب بدقيقة واحدة .. هتف بداخلي هاتف يقول :

« الا يحتمل ان يكون الرجل .. الان .. معي ..في الاتوبيس »

قلت لنفسي في حدة :

« وما اهمية ذلك .. فليتبعني عشرات الرجال من امثاله .. فليتبعني رئيسي نفسه .. ان صفحتي بيضاء كدقيق القمح ..

وعلى الرغم من ذلك فقد جلت بعيني في الاتوبيس بحثا عنه . لم استطع ان انفذ ببصري بعيدا بين الرؤوس . توقفت عن البحث ، وحولت عيني الى الطريق ، وانا اسخر من مخاوفي.

على بعد مقعدين ، بجوار النافذة ، رأيت وجه انثى . كان جميلا ... هادئا .. بسيطا وكل ما فيه مبتسم . استماتت عليه عيناي .ونسيت فجأة ـ الرجل الغريب ـ ورئيسي .. وما بعده من تقارير . لم اعد ارى غير هذا الوجه .

سألت نفسي : ترى ما الذي يشغل هذا الرأس الجميل الان ..»؟

وحاولت ان اعرف ذلك من وجهها . ويبدو انها احست بلسع نظراتي الموجهة اليها . فقد نظرت اليّ فجأة ، ثم احنت رأسها ، والتفتت مرة اخرى الى النافذة .

« انه صباح بديع بحق ..» .

هذا ما قلته لنفسي في ارتياح .التقت عيناها بعينيّ مرتين خلال الرحلة الى ميدان التحرير . كان من الواضح لي انها احست بوجودي . ولا استبعد ان تكون قد شاهدت صورتها في عينيّ .

عند محطة النهاية نزلت هي اولا .. ونزلت بعدها . تعمدت ان اترك بيني وبينها مسافة . ان مثيلاتها لا يصح لمسهن في الزحام .وقفت تتلفت حولها في حيرة .. وتعمدت ان اتلكأ على مقربة منها . لم يكن بوسعي ان اتركها وامضي .كنت قد نسيت المكتب . التفتت اليّ . التقت عيناها بعينيّ للمرة الرابعة . لم تحد بنظرتها عني في هذه المرة .. بل اتجهت نحوي في هدوء . قفز قلبي بين ضلوعي .. وصرخ هاتف بداخلي يقول : « انت على ابواب الجنة ياولد » .

سألتني في تردد :

ـ من فضلك .. اين المتحف ..؟

لقد اختارتني دون الناس اجمعين لتسألني عن المتحف . لا بد

انها توسمت فيّ الثقافة ،والطيبة .. وارتاحت اليّ .

ـ المتحف .. متحف ماذا ؟ ... آه المتحف ... ها هوذا ... هنـاك ..

« انها مثقفة ايضا .. تبحث عن المتحف . ربفية مثقفة . لا شك انهـا تصلح زوجة لي ..»

القت نظرة طويلة الى حيث اشرت .. وعادت تسالني :

ـ كيف الدخول اليه ..؟

ـ بسهولة .. من الباب . لحسن الحظ اني ذاهب الى المتحف.. الديك مانع في ان اصحبك ؟

لقد كذبت . ولكنها كانت كذبة بيضاء لا تسيء الى أحد .ولايمكن ان يعيش الانسان معقمـا على ايـة حال . وليس فـي هذه الكذبة ما يجعلني اسوأ من غيري . ثم ان لي ـ ككل موظف ـ سبعـة ايـام اجازة عارضة .. ولا يمكن ان يكـون حصولي على يـوم منهـا دليـلا على اني زائد عن الحاجة .. او .. فليكن ما يكون .. فاين يهـرب الانسان من المقدور ..

ـ انا لم اعرف اسمك بعد ...

ـ اسمي مريم ..

اسمها مريم . جاءت مع امهـا مـن دمياط في زيارة لخالهـا المريض . سمحت لهـا امها ـ بعد عذاب ـ ان تخـرج لتشاهـد المتحف . كانت امنيتها ان تشاهد المتحف .. فالتقت بي . حكت لـي هذه الحكاية .. ووجهها مشرق بالسعادة . امضينا معـا يوما رائعا. ان ثلاثة ايام ، في حياتي ، هي اجمل ايامي . يوم صدور القـرار بتعييني محققا في مكتب الشكاوى . ويوم ان اشتريت لزوميات ابي العلاء . ويوم التقيت بمريم. والامر المحقق ان اليوم الاخير هـو اجمل ايامـي جميعـا ..

لم ندع ركنا من اركان المتحف دون ان نمر به . لم تكن تتفرج على الاشياء .. بل كانت تتشربها .. وتوشك ان تعانقها . حكيت لها حكاية ايزيس واوزوريس .. بينمـا كنا نتمشى في ردهات المتحف . فكانت تنصت اليّ في شغف وانبهار . انطلقت مني اقوال عظيمة في ذلـك اليوم . اقوال واضحة .. لا غموض فيها ... تمنيت لو سجلتهـا جميعهـا قبل ان انساها .

كان مما قلته لها :

« ان هذه الاثار اندلت على شيء .. فعلى ان اجدادنا كانوا قـد حلوا كل مشاكل حياتهم ، فلم يكـن امامهم الا ان يفكروا في الموت.. وفي الخلـود ..»

وقلت لها ايضـا :

« كانت حياتهم رخيـة .. هؤلاء الاجداد . فقد كانـوا اقل منا عددا بكثير . يعيشون على نفس الرقعـة من الارض . ويرويهم نفس النيل . فلا ريب انهم لم تكـن لديهم مشاكل .. ولا زائدون عن الحاجة ..»

انتهينا من المتحف في الثانية بعد الظهر .. موعد مغادرتي للمكتب. بينما كنا نعبر البوابة الى الشارع ، امتدت يدي المرتجفة فامسكـت بيدها . بهتت لاول وهلة .. ولكنها لم تعترض ثم لم تلبث ان سحبت يدهـا في هدوء وهي تعض شفتها وتبتسم في خجل .

قلت لهـا :

ـ اتمنى ان اراك ثانية يامريم ..

قالت في بساطـة :

ـ وانا ايضا .. احب ان اراك ..

ـ فليكن موعدنا غدا ..

ـ ليكن .. وساحاول جهدي مع امي ..

ـ لن استطيع ان القاك في الصباح لسوء الحظ .. فانا موظف كمـا تعلميـن ...

ـ ليكن لقاؤنا في العصر ..

ـ هنا .. عند هذا الباب ..

تركتها في الاتوبيس ، وقفزت الى الارض .. خفيفا كعصفور . وددت لو ارى امي ، فاقص عليهـا لقائي بمريم .. بكل مـا فيه مـن تفاصيل . كنت احس بنشوة غريبة غامرة .. وكانمـا امتلكت القدرة على تحريك الارض . لو كنت قـد التقيت ،في تلك الساعة ، بذلك الرجل الكئيب على الدكة امام الدكان ، لاتجهت اليه على الفور .. ولسالته من هو ، وماذا يريد .. ؟ .. ولم يكـن مستبعدا ان ابصـق عليه بكـل قوتي . ولكن الشيء الذي صدمني وهز كياني .. اني لـم اعثر له على اثر .. امام الدكان .. او في اي مكان اخر بالشارع .

« ايـن ذهب الرجل ..؟ » وجهت السؤال الى نفسي في انزعاج. وكدت اندفع الى الحاج .. برعونة .. لاسأله . لم يكـن لغيابه سوى معنى واحد .. « لقـد كان يتعقبني طيلة اليوم . رآني مـع مريم . راقبني وانـا هائم بها في اروقة المتحف . شاهد يدي وهي تنسحب تجاه يدهـا عند الباب . ولا بد انه سجل كل هذا . ولربمـا اضاف عليه مـن عنده الكثير . ومع ذلك فلن اهتم . ولماذا اهتم ؟. انني لن اعيش معقمـا بحال .. فانا انسان قبل ان اكون موظفا . موظف انسان. انسان رغم كل شيء . ولا يمكن للانسان ان يعيش معقما وتابعت احدث نفسي وانا متجه الى البيت .

« لا محل لان افترض انه كان يتعقبني .. اني لافسد جمال اليوم بهذا الافتراض . فلانس كل شيء عنه ..»

ثم قفز بذهني سؤال عسير بينمـا كنت اصعد السلم الى شقتي.

« ولكن .. بماذا ابرر غيابي اليوم عن المكتب؟ لا بـد ان اجـد مبررا معقـولا ..»

وامضيت الامسية كلها ابحث عن جواب للسؤال . ولم يظهـر الرجل الطويل الكئيب على دكـة الحاج طيلة هذه الامسية .. ممـا اتاح لي ان افكر في هدوء ...

* * *

رايت احلامـا جميلة في تلك الليلة .. وان لم تكـن تخلو مـن مخاطر. دخلت معارك بالسيف مـع رجال لا ملامح لهم، ، فـوق جبـال غامضة .. يشملها ظلام ازرق لا نهائي .. وانتصرت . قفزت من اعلـى قمة الجبل الى الارض .. ولم يصبني ضرر . وجدت حبيبتي فـي انتظاري . لا اقطع بان حبيبتي التي كانت تنتظرني هي مريم نفسها . ولكني احسست بانها هي نفسها . كنت سعيدا .. سعادة فوق الاحتمال .. وانـا اطوقها بذراعي وامضي بها .. شامخ الراس .. مبتسما كبطل ... بينمـا كنت اردد ابياتا من شعر المتنبي .

كان الصباح التالي بهيجا .. كصباح البارحة بل اشد بهجة. اغلق رئيسي مكتبه على نفسه واضاء المصباح الاحمر حتى الظهـر. قلت لنفسي ، « فليكتب ما شاء من تقارير .. فلن يجد شيئا ضـدي . . وتشاغلت عنه بمريم . لم تفارق مريم مخيلتي طيلة النهار .. حتى وانا افكر في الباب المغلق على رئيسي . استغرقتني البهجة وانا اجيـل عينيّ في تل الشكاوي المحولة عليّ .. فاخذت ادندن . لم يردني الى الوعي الا ضحكات زملائي من حولي . فابتسمت لهم في مودة . لم اكن لاهتم الا بموعـدي مع مريم ..في الساعة الرابعة امام باب المتحف..

حين عدت الى البيت .. لم اجد الرجل الغريب هناك . قلـت محدثا نفسي في هدوء .

« يبدو انه مـات ..»

وتذكرت حلم الليلة الماضية . ثم تابعت اقول لنفسي في اشفاق:

« ما اكثر حوادث المرور في العاصمة .. »

تانقت . لبست احسن ثيابي.. وتعطرت . هبطت السلم قفزا.. كولد نشط مرح . حتـى اذامـا تخطيت عتبـة البيت تجمدت .. وقد

دهمتني موجة مباغتة من الاغتمام . كان الرجل المعمم الكئيب هناك ... على الدكة ..وقد اخفى وجهه وراء الجرنال .

خواطر عدة تدافعت الى راسي في تلك اللحظة . اكثرها نزقا.. ان انقض على الرجل في غل .. فامزق جرنااله بيدي واسناني .واشدها تعقلا .. ان انسحب في سكون بجوار الحائط فافر دون ان اثير انتباهه .. حتى لا يعوقني شيء عن مريم . هذا ما فعلته . انسحبت في سكون بجوار الحائط . لم اضرب الارض بكعب حذائي ، ولم التفت الى يمين .. او يسار .مرقت من الشارع كالطيف . ابتعدت في خطوات هي اقرب الى الهرولة . ثم قفزت في اول اتوبيس مر بي قبل ان اتحقق من وجهته .

لم يكن بالاتوبيس سوى عدد قليل من الناس . القيت بجسدي في احد المقاعد .. وتنهدت .فركت راحتي في تلذذ واعتداد . وما لبثت ان اسلمت راسي لنغمات لحن قديم .. لعبدالوهاب .

* * *

هل اطلعكم على سر؟ ان السماء ترعاني . هذا ما اقتنعت به في النهاية والا .. فكيف افسر ما حدث في عصر ذلك اليوم ؟ رجل مسترخ في مقعد الاتوبيس .. مستسلم لخيالات عذبة .. يرى نفسه فيها مع محبوبته بعد دقائق .. محبوبته التي تنتظره عند مدخل المتحف .. وراسه يغني لحنا لعبدالوهاب .. ما الذي يوحي اليه .. بغتة .. وفي لحظة بعينها .. دون غيرها .. وبغير قصد .. ان يلقي نظرة من نافذة الاتوبيس على الطريق ؟ لا ادري اي مصير كان ينتظرني لو لم القى هذه النظرة العشوائية ،في تلك اللحظة ،على الطريق.

عشرات السيارات كانت محتجزة معنا خلف اشارة المرور .تشكل منها مسطح كبير ، متعدد الوانه ، حجب ارض الشارع . كان اللون الازرق القاتم، لون سيارات التاكسي، يغلب عليه . ملت بوجهي قليلا .. والقيت نظرتي تلك .. فوقعت على الزجاج الخلفي لاحدى هذه السيارات . نظرة وحيدة .. ولكنها كانت كافية . انه يتبعني الرجل البغيض يتعقبني في سيارة تاكسي . انني استطيع ان اتعرف عليه من بين عشرات المعممين ، حتى ولو كنت انظر اليه من الخلف .. حتى ولو كان راكبا سيارة وكنت في اتوبيس.انتفضت . مات لحن عبدالوهاب في راسي فجاة وعدت احملق في ذعر . « لعبة قذرة .. ولكنها مكشوفة » .

.. « انه يلاعبني لعبة المساكة .. ولكنه لن يمسك بي . لن ادع له فرصة للامساك بي . مثقف هاو .. ضد مخبر محترف .. يقرا الجرنال الواحد في عام . لن تكون الغلبة للمخبر ..»

فتحت اشارة المرور . اضطرب المسطح الملون ..تداخلت الالوان.. وتسابقت .. وغاب « قفا » الرجل عن عيني .ولكن وجوده لا يستلزم بالضرورة ان اراه . فاللعبة لم تنفض بعد .

« اكون او لا اكون .. هذه هي القضية ..»

اقترب الاتوبيس من ميدان التحرير . مر بالمتحف . تشبثت عيناي بالمدخل . رايت مريم . كدت ارتكب حماقة .. فاقفز من الاتوبيس .. فاتجه اليها لفوري .. دون حرص . كانت ترتدي ثوبا ابيض بديعا .. وقد وقفت لصق البوابة .. تتلفت حولها وهي تعتصر راحتيها في قلق. كانت تبدو اجمل مما كانت عليه في الامس اضعافا ... « ما اجمل ملمس يدها !» ... كنت ما ازال احس ملمس يدها في يدي ..

تركت الاتوبيس في محطة النهاية . تعمدت ان اقف بلا حراك في المحطة . ان الخداع هو السبيل الوحيد للخلاص . مررت بعيني في بطء على الهيلتون .. فمبنى جامعة الدول العربية .. فوزارة الخارجية .. وانتهيت بهما عند المبنى المجمع . كنت امثل دور الريفي الذي يشاهد هذه الابنية لاول مرة . وكنت في نفس الوقت افتش عن وجه الرجل المارد وسط هذا المحيط . الارض مبتلة . الزحام ثقيل .اقفاص الصحف تحتل جوانب الموقف ، وباعة الاقلام وسورة يس .. يلحون بالصراخ في اذني . ويضربونني بالاكتاف . وابواق السيارات لا تكف عن النعيق . انتابني الصداع .. واحسست باني مريض .لم يكن بامكاني ان ارى مريم من مكاني . ولكني كنت اتخيلها كما لمحتها . كنت اعرف ما يدور برأسها الجميل .. وهي واقفة هناك .. تنتظر .قلت لنفسي مرة اخرى « ان وجود هذا الرجل .. لا يستلزم بالضرورة ان اراه . لا بد وانه في مكان ما .. من الميدان .. يبذل جهده .. ليؤدي اللعبة باتقان ..»

خطوات خطوات في اتجاه المتحف ..وتوقفت.عدت احملق فيما حولي وانقل بصري بين سيارات الاجرة التي تمر امامي وخلفي . سرت على مهل .. في الاتجاه المضاد للمتحف .. نحو المبنى المجمع . ثم انعطفت يسارا .. ويسارا مرة اخرى .درت حول الميدان .توقفت قبل ان اكمل الدائرة . لم يبق غير امتار قليلة اقطعها نحو المتحف .. ويحتويني الفخ .. « اكون .. او لا اكون . .. هذه هي القضية . ولان اكون ... « فهذا هو حلها النهائي .. ولا حل سواه ..»

لم اكن ارى مريم من مكاني هذا ايضا .. فزحام الناس والسيارات كان يحجبها عني . ربما كانت قد انصرفت .. بعد ان عذبها الانتظار . وربما كانت ما تزال تنتظر . ما الذي ابقيه منها على اية حال ؟ والى اين ينتهي بي وبها الطريق ؟ لا شيء مؤكد على الاطلاق. ليس مؤكدا انها تصلح زوجة لي . وليس مؤكدا ايضا ان لها خالا مريضا . او انها من دمياط .او ان لها اما لا تسمح لها بالخروج بمفردها الا بعد عذاب . الرجل المثقف لا يأخذ من الامور ظاهرها .. والا فما الفرق بينه وبين رجل يدس وجهه في جرنال واحد بالايام .. وربما بالاسابيع .. دون ان يقرأ منه حرفا ؟ ليس مؤكدا ان مظهرها البريء النقي .. لا يخفي وراءه حقيقة اخرى مروعة . الا يحتمل ان تكون هي نفسها ، فخا نصب لي .. جزءا من اللعبة القذرة ...

ايا كان الامر ، فان الوصول اليها امر شاق . فالطريق زحام . وسيل السيارات لا ينقطع . والرجل الكئيب متربص في مكان ما من الميدان . وانا احس بالمرض وبالاختناق . ووجه امي ما يزال مدسوسا في الدخان .. تنفخ .. وتنفخ .. لتشعل النار .. « لن ادع لاعدائي ثقبا ينفذون منه الي ..»

ـ تاكسي .. تاكسي .. انتظر .

القيت بنفسي في السيارة . اغمضت عيني وانا امر بالمتحف . اشارات ـ المرور كثيرة في الشوارع .. حمراء .. وحمراء .. وحمراء. ان من يركبون السيارات ليسوا اسعد حالا من المشاة .. بعد ربع ساعة بالتحديد كنت امام بيتي . لم يكن الرجل الغريب هناك . . أرايتم ..؟ لقد كان يتعقبني ..

تنفست نفسا عميقا ، وابتسمت لنفسي في ظفر .. « دعه يبحث عنك في ميدان التحرير .. هذا الابله .. سيشيب شعر راسه من هول الصدمة ..

ـ كيف الحال ياحاج ..

ـ اهلا .. وسهلا ..

ـ اعطني بقرش نعناع .. لو سمحت ..

جلست على دكة الحاج في هدوء . دسست قرص نعناع في فمي .. رفعت وجهي الى شرفتي . تمنيت لو اكون هناك .. وهنا ..في نفس الوقت .. لارى كيف ابدو للجالس على الدكة . خطرت لي مريم بفستانها الابيض الجميل الذي ارتدته خصيصا لي ...غير اني تخلصت من صورتها في حزم . ثم تخيلت الرجل المارد الابله .. ضائعا في زحام الميدان .. فكدت اقهقه . همست لنفسي وانا اتنهد في ارتياح..

ـ الان ..لن يمسكوا بشيء ضدي ... سيحيرهم امري ..فانا انسان معقم ..

ولفرط ما كنت احسه من سعادة...تملكتني رغبة في البكاء ..

القاهرة

محمود دياب